

الباب الثالث

النظرية السيمائية لرفاتير

أ. مفهوم السيمائية

الشعر ليس عملاً سهلاً ساذجاً كما يعتقد كثير من الناس، وكلمة شاعر عندنا في اللغة العربية تقترب من معناها في اليونانية، فالشعر معناها العالم والشعر معناه العلم.^١ وبعض الشعراء لديهم من القدرة ما يخرجون به ما يريدون في شكل جذاب.^٢ لم يظهر الاهتمام بالقارىء أو المتلقي إلا بعد مرحلة البنيوية والسيمائيات التي ركزت كثيراً على النص، بشكل من الأشكال، وأقصت بشكل كلي مفهوم المؤلف والمرجع والسياق والإحالة. وكان التركيز على النص باعتباره مجموعة من البنيات الداخلية المغلقة، وعالمًا من العلامات اللغوية والأيقونات البصرية.^٣

عندما تطرح قضية تسمية العلم يظهر المسميان: الفرنسي "Sémiologie"

والإنجليزي "Sémiotique" وكلاهما مشتق من الأصل اليوناني "Semeion" كما يشير

^١ شوقي ضيف، الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي، (القاهرة: دار المعارف، ١١١٩ هـ)، ص. ١.

^٢ أحمد أمين، النقد الأدبي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧ م)، ص. ٧٦.

^٣ جيميل حدوي، نظريات القراءة في النقد الأدبي، (تابع الجديد والحصري على شبكة الألوكة، ٢٠١٥ م)، ص. ٦.

إلى ذلك سوسير في محاضراته. ومن الناحية التركيبية، فهي منحوتة من مفردتين؛ أولاهما "Semeion" التي تعني (علامة)، وثانيتها "Logos" التي تفيد معنى (العلم) أو (المعرفة). وفي الدراسات العربية كثير من الدارسين يستعملون مصطلحي "السيميوطيقا" و"السيمولوجيا" على سبيل الترادف. ومنهم من أضاف: "السيمائية" "السيميات" ، "علم الأدلة" "علم العلامات". ومنهم من فَرَّق بين هذه المصطلحات على رأي "دوبوا" و"غريصاص" : السيمولوجيا علم، السيميوطيقا نظرية، السيمائية بحث في الدلالة. على أن السيمائية العربية أصبحت منهجا نقديا يدرس دلالة العلامات^٤.

إن "السيميوطيقا" عند "بيرس" نشاط معرفي شامل تهتم بكل ما تنتجه التجربة الإنسانية عبر مجمل لغاتها ومن خلال كل أبعادها، فهي رؤية للعالم تتلخص في النظر إلى الوجود الإنساني من خلال وضعه باعتباره علامة في الكون، بل إن الكون ذاته ليس كذلك إلا في حدود اشتغاله كعلامة، فكل ما فيه من أشياء وكائنات وطقوس وأوهام ، وحقائق يشتغل كعلامة ويتسلسل إلى الوجود الإنساني باعتباره كذلك حيث " إن الإنسان علامة ، وما يحيط به علامة ، وما ينتجه علامة ، وما يتداوله هو أيضا علامة ، والخلاصة أن لا شيء يفلت من سلطان العلامة.^٥ وبيرس أستطاع أن يدخل بعض

⁴ Puji Santosa, *Ancangan Semiotika dan Pengkajian Susastra*, (Bandung: Angkasa, 2013), p.2-3.

⁵ Rina Ratih, *Teori Aplikasi Semiotik Michael Riffaterre*, (Yogyakarta: Pustaka Pelajar, 2016), p. ٢.

مفاهيم السيميوطيقيا إلى معجم بالدوين Baldwin الذي كان أحد محرريه.^٦ والسيميائية هو من فرع العلم الذي يتعلم فيه العلامة وكل مايتعلق بها مثل نظام العلامة والعملية المجرية في استخدام العلامة، ثم شرح فرمينجير (Preminger) أنه يتعلم عن الأنظمة والقواعد والاتفاقات التي اعطت إلى العلامات عدة المعاني.^٧ والعلامة هي التي توكل الشيء الآخر من الخبرة والنكرة والعاطفة وغيرها.^٨

إن السيميائيات علم واسع، وشامل، وجامع في طياته لكثير من العلوم، ولذلك (فالمجال السيميولوجي لا يزال الناس فيه بين أخذ ورد، بسبب أنه لم يحدد بعد)، حقا، فإنه من الصعب جدا وضع مفهوم محدد للسيميائيات، هذه الأخيرة التي يعلم الكل أنها تعني (علم العلامات) لكن المشكلة متعلقة بهذه العلامات، التي هي أصل الوجود، والتي تسمى جل جوانبه.^٩

ثم تهم السيميائية *semiotique* المنحدرة من البنيوية الأوروبية منذ عدة سنوات بالكنه والذات والمتصل *continu* والإدراك الحسي. ويشكل مواز، أدت الأبحاث الفردية والجماعية المتعلقة بالبعد العاطفي للخطاب إلى تعديل شامل لنظرية المعنى يتجاوز بصورة

^٦ جيرار دو لودال، السيميائيات أو نظرية العلامات، (سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤ م)،

^٧ Rina Ratih, *Teori Aplikasi Semiotik Michael Riffaterre, ...*p.1.

^٨ Suwardi Endraswara, *Metodologi Penelitian Sastra Epistemologi, Model, Teori, dan Aplikasi*, (Yogyakarta:CAPS, 2011), p.21.

^٩ فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠ م)، ص. ١٦ .

كبيرة مجال البحث الذي تعينه هذه النظرية، فهناك من تحدّث، منهم للتعبير عن ابتهاجهم ومنهم عن قلقهم، عن "نموذج جديد" أو عن "سيمياء جديدة".^{١٠}

يرى بعض العلماء أن لفظ السيمياء هو أحد المعربات الثلاثة السيمولوجيا والسيولتيك والسيمائية للفظ يوناني هو (السيميو طيقا) من كلمة (السيمولوجيا) وتعني العلامة . ويعرفه بأنه : " علم يدرس العلامة ومنظوماتها (أي اللغات الطبيعية والاصطناعية) كما يدرس الخصائص التي تمتاز بها علاقة العلامة بمدلولاتها . " أي تدرس علاقات العلامات والقواعد التي تربطها أيضاً.^{١١}

السيمولوجيا كما يعرفها لويس بريتو هي علم يبحث في أنظمة العلامة سواء أكان مصدرها لغويا أم مؤشريا. ويستفيد هذا العلم في دراسته للعلامة من جملة من العلوم مثل اللسانيات والبلاغة والأسلوبية والشعرية وكذلك علم النفس لكون العلامة ذات طابع نفسي واجتماعي. ومثلما أن الأسلوبية أسلوبيات والشعرية شعريات فإن

^{١٠} جاك فونتاني، سيمساء المرئي، (سورية: دار الحوار، ٢٠٠٣ م)، ص.٩٠.

^{١١} سعديّة موسى عمر لبشير، السيمائية: أصولها ومناهجها ومصطلحاتها، (جامعة السودان للعلوم

والتكنولوجيا)، ص. ٦-٧ .

السميائية سيميائيات. فمنها ما ينطلق من المنطق كما نجد عند بيرس، ومنها ما ينطلق من الظواهر الاجتماعية، ومنها ما ينطلق من النص.^{١٢}

تنهض السيميائيات العامة، داخل إطار نظرية العلامة، على حقول نظرية قاعدية كتلك التي ترتبط بأمثلة العلامة اللسانية، أو بمتصورات الدلالات المفتوحة، أو بالنظرية السردية للخطاب. وفي هذا السياق بدأ من المهم الوقوف على مجموع تلك المفاهيم اللسانية التي أضحت تشكل مبادئ للسيميائية. وضع دي سوسير العلامة اللغوية في إطارين: الأول مادي هو الدال *Signifiant* (صورة صوتية) والثاني مثالي وهو المدلول *Signifie* فإذا أخذنا على سبيل المثال كلمة "فرس" فإن الدال هو الصورة الصوتية (يعني وجود أصوات ف-ر-س)، أما المدلول فهو -مفهوم الفرس. والعملية التي يجري إخضاع الدال لها وتتماشى والمدلول تسمى الدلالة *Signification* ؛ إذ أن الرابطة ما بين هذا الدال وما يقابله من مدلول، من حيث الجوهر -هي رابطة تواضعية وغير معللة (لأننا لا نستطيع أن نثبت، على سبيل المثال، أن الصورة الصوتية لكلمة "فرس" يحددها جوهر مفهوم "الفرس") ولكن، مع ذلك فإن المواضع الساكنة في أساس

^{١٢} فاتح علاق، التحليل السيميائي للخطاب الشعري في النقد العربي المعاصر "مستوياته وإجراءاته"،

الدلالة وطيدة وثابتة (لا يوجد أحد من بين أعضاء المجتمع يستطيع أن يغيرها انطلاقاً من رغبته الفردية).^{١٣}

مما يدل على أهمية هذا المصطلح أن الكثيرين يسمون هذا العلم بعلم العلامات ومن هؤلاء بيرس الأمريكي الذي يميز بين أنواع العلامات فيقول إنها ثلاثة أنواع هي:^{١٤}

١. العلامة الأيقونية : *Iconic Sign* مثل الصور والرسوم البيانية، والخرائط، والنماذج والمجسمات . وهي التي بينها وبين ما تدل عليه محاكاة، أي هي تحاكي ما تشير إليه. وقد تكون هذه المحاكاة عالية كما في الصور التلفزيونية . أو منخفضة كما في اللوحات السريالية والأحلام وبعض مفردات اللغة التي تحاكي معانيها كأسماء الأصوات .

٢. العلامة الإشارية : *Indexical Sign* وهي التي بينها وبين مدلولها تلازم مشهود مثل دلالة الدخان على النار، ودلالة آثار الحيوانات عليها، وكذلك آثار المجرمين.

(الحصول عليه: في التاريخ ١١ فبراير ٢٠١٧ في <http://lang.alamontada.com/t2-topic> ¹³

الساعة: ٠٦:٣٠).

^{١٤} سعديّة موسى عمر البشير ، السيميائية :أصولها ومناهجها ومصطلحاتها، (جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا)، ص. ١٩ .

٣. الرمز أو العلامة الاصطلاحية *Symbol*، وهي ما اتفق عليه مجموعة من الناس بناء على اصطلاح معين وليس بينها وبين ما تدل عليه أي محاكاة مثل: إشارات المرور والعلامات الموسيقية وكذلك الكلمات المفردة في أي لغة .

ب. رواد النظرية السيميائية

يصنف ريفاتير مع الأسلوبية البنيوية ومن الذين يقولون بأن الأدب شكل راق من أشكال الإيصال وأن النص الابداعي ما أن ينم خلقا ويكتمل نصا حتى ينقطع عن مرسله لتبقى العلاقة بين الرسالة والمستقبل زمنا لا يتنتهي دوامه. وهو بذلك خالف ياكبسون الذي يهتم بالمرسل إليه وينصب اهتمامه بالدجة الأولى على القارئ دون أن ننسى الوظيفة الشعرية.^{١٥} وهو عند "أحمد الشايب": ((فن من الكلام يكون قصصا، أو حوارا، أو تشبيها، أو مجازا، أو كتابة، تقريرا، أو حكما، وأمثالا)) أي أنه الطريقة التي يسلكها العمل الأدبي لكي يظهر مادته الفنية إلى الوجود، باعتبار الكيفية التي يعتمدها الأديب لإبراز نوع الأعمال الأدبية انطلاقا من الفنون السابقة.^{١٦} و جاء في كتاب :كشاف اصطلاحات الفنون ، أن السيميائية هي : علم تسخير الجن، بعض

¹⁵ (الحصول <http://www.mohideen-saeed.net/forum.php?action=view&id=141>)

عليه: في التاريخ ١١ فبراير ٢٠١٧ في الساعة: ٠٦:٠٧).

^{١٦} عبد السلام ضيف، التفكير الأسلوبية عند ريفاتير، (جامعة الحاج لخضر، ٢٠٠٩/٢٠١٠ م

ص.١٤.

أنصاف العلماء أدخلوا تحت السيمياء علوماً عدة منها علم أسرار الحروف وهو تفريع السيمياء.^{١٧}

تستند السيميوطيقا الأسلوبية لجورج مولينبي إلى عدة مراجع نظرية ومصادر معرفية ونقدية ولسانية، تتمثل بالخصوص في ما كتبه سميوطيقيو مدرسة باريس (كريماس، وجوزيف كورتيس، وجان كلود كوكي، وجاك فونتانيي)...، وما كتبه رولان بارت عن لذة النص، دون نسيان الكتابات النظرية لكل من: ميشيل ريفاتير، وميشيل شارل، وآيزر، ويوس... حول جمالية القراءة وبلاغتها وسيميائيتها. علاوة على الكتابات اللسانية والأسلوبية والبنوية الشعرية، كما يبدو ذلك جليا عند رومان جاكسون (R.Jakobson)، وإميل بنيفينست (E.Benveniste)، ولوي هلمسليف (L.Hjelmslev)، وميشيل ريفاتير (M.Rifaterre)، وكايت هامبورغر (K.Hamburger)، وتزيفان تودوروف... (T.Todorov).^{١٨}

ومرحلة النص مع البنيوية اللسانية والسردية والسيميائيات مع فلاديمير بروب، وتودوروف، ورولان بارت، وكلود بريمون، وأمبرتو إيكو، وغريماس، وجوزيف كورتيس...،

^{١٧} سعديّة موسى عمر لبشير، السيميائية: أصولها ومناهجها ومصطلحاتها، (جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا)، ص. ٦

^{١٨} جميل حمداوي، نحو مقاربة سيميوطيقية جديدة (السيميوطيقا الأسلوبية)، (الحصول عليه: في التاريخ ١٨ مارس ٢٠١٧ في الساعة: ٢١:٠٠)، (http://www.alukah.net/literature_language/0/62750).

ومرحلة الأسلوب مع مجموعة من الأسلوبيين، مثل: ميخائيل باختين، وفينوغرادوف، وغريفتسوف، وإيف تادييه، وبيير غيرو...، ومرحلة الموضوع أو التيمة مع غاستون باشلار، وجان ستاروبنسكي، وبيير ريشار... ومرحلة مابعد الحداثة التي ركزت على مجموعة من المفاهيم والقضايا، مثل: التأويل، والتفكيك، والتاريخ، والبيئة، والمصادر، والجنوسة، والجنس، والاستشراق، والجمالية، والقراءة... وما يهمننا في هذا الصدد، نظريات القراءة التي تبلورت مع مجموعة من الأسماء، كولفغانغ آيزر (Izer)، وهانز روبير يوس (Jauss)، وأميرطو إيكو (U.Eco)، ورولان بارت (R.Barthes)، وميشيل شارل (M.Charles)، وتزيفان تودوروف (Todorov)، ورايمون ماهيو (Raymond Mahieu)، وفرناند هالين (F.Hallyn)، وستانلي فيش (Stanly Fish)، وميشال أوتن (Ottien)، وروبرت إسكاربيت... (R.Escarpit).^{١٩}

ج. السيميائية لرفاتير

ومنهما يكن من أمر هذا الاختلاف في الدراسات السيميائية من حيث المنهج و أدوات التحليل، فإن ما يجب التنبه إليه هو خصوصية الخطاب الأدبي. ذلك أن

^{١٩} جميل حمدوي، نظريات القراءة أوالتلقي، (الحصول عليه: في التاريخ ١٠ فبراير ٢٠١٧ في الساعة:

.(https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2012/01/09/247923.html) ،(١١:٣٠

العلامة فيه تأخذ دلالات متعددة علاقتها حتى إنها لتصبح النص ذاته. يقول ريفاتير: ((والحقل الأصلي للسيميوطيقا هو انتقال العلامات من مستوى معين من الحديث إلى مستوى آخر، أي تصعيدها من دلالة مركبة في مستوى أول من قراءة النص إلى وحدة نصية تنتمي إلى منظومة أكثر تطوراً. وكل ما يرتبط باندرج العلامات من صعيد المحاكاة إلى مستوى أعلى من الدلالة فهو مظهر من مظاهر السمطقة)).^{٢٠}

سيوضح لكل من سيمضي في القراءة انني معني بتأويل النصوص الادبية، ليس فقط كغاية في ذاتها، بل كجانب من جوانب الدراسات العقلية. والتأويل - أو القراءة بمعناها الواسع - هو أحد الاهداف الكبيرة المتوخاة من الدراسة الأنسانوية - وقراءة النصوص الأدبية هة أحد أفضل المناهج - وربما أفضلها على الإطلاق - لتطوير المهارات التأويلية عند الطلاب. ودون أن ألح باستمرار على هذه القضية، أريد لتوضيحياتي ومناقشاتي في الفصول التالية أن تعزز دور الدراسات السيميائية في تعليم الكفاءة التأويلية.^{٢١}

^{٢٠} فاتح علاق، التحليل السيميائي للخطاب الشعري في النقد العربي المعاصر (مستوياته وإجراءاته)، (مجلة جامعة دمشق، ٢٠٠٩)، ص. ١٥٠-١٥١.

^{٢١} روبرت شولز، السيمياء والتأويل، (بيروت: المؤسسة العبية للدراسات والنشر، ١٩٩٤)، ص، ١٧-

قال رينا راته عن نظرية سيميائية لرفاتير هي تشمل على قراءة الخطية
(Heuristik) وقراءة الارتجاعية (Hermeneutik) . ثمّ أن يسع هي المصنوفة
(Matriks) والنموذج (Model) والتنوّعات (Varian) وهوغرام (Hipogram).^{٢٢}

ويقترح ميكائيل ريفاتير في كتابه: " سيمياء الشعر" (١٩٧٨م) قراءة سيميائية
لدراسة النص الأدبي، متجاوزا قراءة البنيويين للنصوص الأدبية، ليربط القراءة السيميائية
باستكشاف البنيات الأساسية المولدة للنصوص على غرار النحو التوليدي، الذي يعنى
بدراسة البنى العميقة التي تتحكم في البنى السطحية للجمل. وفي هذا النطاق، يقول
دافيد كارتر في كتابه: " النظرية الأدبية": " يهاجم مايكل ريفاتير تفسير كل من
جاكسون وليفي شتروس لقصيدة بودلير: " الدردشات".^{٢٣}

ويظهر ريفاتير أن السمات اللغوية التي يزعمون أنهم قد اكتشفوها في القصيدة
لا يمكن أن يتصورها القارئ مهما كان مطلعاً. وأن العديد من الميزات التي يركزون عليها
ليست جزءاً من البنية الشعرية التي يختبرها القارئ. تعتمد قراءة جاكسون وشتراوس
على معرفة مصطلحاتهم التقنية. يناقش ريفاتير في كتابه: " سيمياء الشعر" أن العناصر

²² Rina Ratih, *Teori Aplikasi Semiotik*p. 8-9.

^{٢٣} جميل حمداوي، نظريات القراءة أوالتلقي، (الحصول عليه: في التاريخ ١٠ فبراير ٢٠١٧ في الساعة:
(<https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2012/01/09/247923.html>)، (١١:٣٠.

في أية قصيدة كثيرا ما تخرج عن النحو المعتاد. ويجب على القارئ أن يعرف كيف يتعامل مع مثل هذه العوامل غير القواعدية . وهذا يعني تطوير كفاءة خاصة.^{٢٤}

لهذا المادة أن تعيننا على توضيح بعض مبادئ الخطاب الشعري كما صاغها ((ميشال ريفاتير)) في كتابه ((سيمياء الشعر)). ان الكيفية التي تنمو بها القصيدة من الاغنية الشعبية باستخدام النفي *negation* أو التقديم والتأخير *Inversion* هي احدى السمات النمطية في الخطاب الشعري. فالنصوص تنبثق من نصوص متداخلة *Intertexts* آخر، أو من قوالب *Matrices* يقدمها الموروث المتواتر وما يطرده مرون في مادته هو ايضا شعري في هره طبقا لمعايير ريفاتير التي اقبل بها الى حد معقول.^{٢٥}

فالقارئ يفترض وجود مصفوفة بنيوية، غالبا ما تكون جملة واحدة أو عبارة، وقد لا تظهر فعلا في القصيدة ، بل هي مثل جملة مثالية، ويحد ذاتها تشبه الأحكام الأساسية التي يفترضها النحو التوليدي عند نوايم تشومسكي. ويتم تعديل هذه الجملة أو العبارة المثالية في الكلام أو الاستخدام الفعلي (ما يدعوه ريفاتير هايوغرامات). وقد يكون هذا النمط من قراءة القصيدة مفيدا بشكل خاص في تفسير القصائد التي تتعارض مع قواعد النحو العادية (مثل الكثير من قصائد إميلي ديكنسون)، ولكن هذا

^{٢٤} جميل حمدوي، نظريات القراءة أو التلقي، (الحصول عليه: في التاريخ ١٠ فبراير ٢٠١٧ في الساعة: ١١:٣٠)، (<https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2012/01/09/247923.html>).

^{٢٥} روبرت شولز، السيمياء والتأويل، (بيروت: المؤسسة العبية للدراسات والنشر، ١٩٩٤)، ص. ٧٩ .

النمط من القراءة محدود في تطبيقه، وكثيرا ما يؤدي إلى العموميات التي لا تفسر لماذا تكون أية قصيدة معينة مؤثرة بشكل خاص "وعليه، فسيمائية القراءة كانت تركز على المتلقي باعتبارها قارئاً مفترضا خبيراً له خبرة كبيرة في إعادة بناء النص تفكيكا وتركيبا، عبر استكشاف البنيات النصية المضمرة، والبحث عن كيفية بناء الدلالة والمعنى عن طريق المكونات الشكلية والجمالية"^{٢٦}.

^{٢٦} جميل حمداوي، نظريات القراءة أوالتلقي، (الحصول عليه: في التاريخ ١٠ فبراير ٢٠١٧ في الساعة: ١١:٣٠)، (<https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2012/01/09/247923.html>).